صورة الغرب كما رآه الطهطاوي

ريما منير لبّان

كثرت المؤلفات التي تناولت تأثير الغرب في الشرق وتأثر الشرقيين بمظاهر الحضارة الغربية وتبنّيهم لبعضها. كما كثرت المؤلفات التي تناولت، من بين هؤلاء الشرقيين، الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣م)، فتحدثت على رحلته إلى باريس وعلى ريادته لحركة النهضة العلمية في بلاده بعد عودته، وعلى تأثّره بكثير من مظاهر الحضارة الغربية.

ولكننا لم نقع، ضمن نطاق بحثنا، على مؤلّف تناول صورة الغرب كما رآها الطهطاوي؛ مع أن فهم الطهطاوي للغرب وانطباعه عنه يسبقان مسألة تأثره به أو نقله لبعض مظاهره الحضارية.

كيف فهم الطهطاوي الغرب؟ ما هي مآخذه عليه؟ ما هي مواطن إعجابه به؟ ما هو موقفه منه؟ ما هي نقاط التلاقي والاختلاف بين حضارة الطهطاوي وهذا الغرب؟ أين تجلّت الجدلية بين الشرق والغرب في ذهن الطهطاوي؟

إن هذه التساؤلات والإجابة عليها، أو محاولة الإجابة عليها، تعيننا على فهم موقف الطهطاوي والمشرقيين منْ بعده من الحضارة الغربية الوافدة، وعلى فهم طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب إلى يومنا هذا.

وكان لا بد لنا، قبل الكلام على تجربة الطهطاوي، من الوقوف على تجارب المشرقيين المتقدمين، ودراسة انطباعاتهم عن الغرب ومدى وعيهم لما يمثّله من أفكار ومبادىء وقيم. والغاية من ذلك أمران:

الأول هو التعرف إلى خلفية الموقف المشرقي من الغرب بهدف تحديد موقع الطهطاوي ومكانته بالنسبة إلى من سبقه وتقييم آرائه على ضوء ما تقدم من آرائهم.

والثاني هو رصد التغيرات التي طرأت على نظرة المشرقيين إلى الغرب؛ فلقد كان الطهطاوي

أول من اطلع على الحضارة الغربية في ديارها لذلك جاءت نظرته إلى الغرب مختلفة عن نظرة من سبقه من المشرقيين الذين لم يتعدّ مفهوم الغرب في أذهانهم حدود الحملة الفرنسية أو بعض أخبار متفرقة، مما ترامى إلى مسامعهم، عن الثورة الفرنسية وما رافقها من أحداث.

ومن بين هؤلاء المشرقيين الذين تكلموا على الغرب، والذين كانت لهم آراء صريحة فيه نذكر المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي (١٧٥٤ - ١٨٢٢م) والشاعر المؤرخ نقولا الترك (١٧٦٣ - ١٨٢٨م).

ولقد أرّخ كل من المؤلفين لأحداث الحملة الفرنسية بناءً على طلب أحد الحكام السياسيين، فوضع الجبرتي كتابه مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس بناءً على طلب الوزير يوسف باشا «الذي أراد تاريخ فترة الحملة الفرنسية لتكون عبرة بين الناس». ووضع نقولا الترك كتابه **الحملة الفرنسية على مصر والشام** بناء على طلب الأمير بشير الذي عهد إليه «بمراقبة الحالة العامة أثناء الاحتلال الفرنسي لمصر». فكان عليه «أن يحسن المراقبة من مقره، في القاهرة أولاً، ثم في دمياط، وأن يدوّن كل ما يتصل به من أخبار الجيوش وحركاتها، وعددها وعُددها، وأن يُرسل بخلاصة ذلك إلى أميره».

ولقد شكلت تقارير ومؤلفات هذين المؤرخين باكورة الانطباعات الشرقية القيّمة عن الغرب ولم تكن صورة الغرب في أذهان الشرقيين، قبل ذلك، أكثر من مجموعة أفكار وأوهام وأحكام مسبقة تفتقر إلى المشاهدة والتجربة والتفاعل.

ولقد أردنا أن تكون دراستنا لهذا الجيل فلم نشأ أن نقتصر على تجربة أحد المؤرخين دون الأخرى؛ فلقد جاءت نظرة واحدهما مختلفة عن نظرة الاخر ومتمّمة لها ذلك أن كلاً منهما قد قيّم الغرب من خلال انتمائه الديني والسياسي والفكري:

فالجبرتي المؤرخ المسلم المصري الذي عاش تحت سلطة العثمانيين والمماليك قد أتى بمواقف واراء تختلف عن مواقف نقولا الترك الشاعر والمؤرخ المسيحي اللبناني الذي عاش في كنف الأمير بشير.

كانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ أول احتكاك فعلي مباشر للشرق الإسلامي بالغرب الحديث. ولقد شكلت بجنودها وعلمائها وكل ما أتت به نموذجاً مصغراً عن الغرب، اطلع عليه الشرقيون في ديارهم؛ فاقترنت صورة الغرب في أذهانهم بهذه الحملة وبكل ما اشتملت عليه من مبادىء وأفكار وقيم.

ويمثل الجبرتي الذي أرّخ لأحداث هذه الحملة نموذجاً حيّاً لهذا الاحتكاك، أو لما نجم عنه، وصدى لتصور المصريين، نخبتهم وعامتهم، لهذا الغرب الزاحف.

وتدخل في تصور الجبرتي للغرب عوامل عدة تجعل نظرته ذات وجوه مختلفة، من ذلك

عامل دخول الغرب إلى مصر كغازٍ محتل، وعامل اختلاف الحضارة والدين وعامل هام جداً وهو جهل الجبرتي والمصريين شبه الكلي بأحوال الحضارة الغربية وما وصلت إليه في كافة المجالات.

فلقد كان الجبرتي والمصريون والمماليك يجهلون أحوال الغرب وما وصل إليه في فنون الحرب بفضل تقدم العلوم والتكنولوجيا، فاستخفوا بتهديده ولم يعوا خطره، واعتقدوا أن بإمكانهم صدّه بحوافر خيولهم.